

قبرس من نور الصحابة والتابعين

د. محمود جيلاني



الملك العادل - نور الدين محمود

المحتويات

- 3.....مولده ونشأته.....
- 4.....المسلمون في ذلك الزمان.....
- 6.....نور الدين يبدأ طريق التحرير.....
- 7.....الإصلاح في عهد نور الدين.....
- 10.....عدله.....
- 12.....شمائله.....
- 15.....إحياء السنة.....
- 17.....هيبته ووقاره.....
- 19.....نور الدين الزاهد الفقيه.....
- 21.....الزاهد يلعب الكرة.....
- 23.....زوجته عصمت الدين خاتون.....
- 24.....صلاح الدين الأيوبي..غراس نور الدين الطيب.....
- 28.....بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي.....
- 30.....وفاته.....
- 30.....كلمة أخيرة (الشهادة بصدق).....

مولده ونشأته

هو الملك العادل، لقبه نور الدين، واسمه محمود، وأبوه الأتابك (الملك) عماد الدين زنكي (الملقب في المراجع التاريخية بالشهيد) ، وجده الأتابك آق سنقر (الملقب بقسيم الدولة) .

وأصول نور الدين محمود ترجع إلى الأتراك السلاجقة، وهي سلالة تركيَّة تتحدر من قبيلة تنتمي إلى مجموعة أتراك الأوغوز، وهي نفس القبيلة التي سيأتي منها بعد قرون عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية.

ولد سنة 511 هـ بحلب، وقت أن كان والده عماد الدين زنكي حاكماً لحلب والموصل وغيرهما من البلدان الكثيرة، وكان أبوه زنكي هو أول من بدأ في جهاد الصليبيين ومحاولة طردهم من بلاد المسلمين، وصار أمل المسلمين في ذلك، فلما قتل زنكي سنة إحدى وأربعين وخمسائة انطفأ هذا الأمل وكاد يموت لولا أن منَّ الله على الأمة بمن يكمل هذا الطريق فكان ابنه نور الدين الذي صار إليه الملك بحلب بعد أبيه.



المسلمون فى ذلك الزمان

تولى نور الدين محمود حكم حلب والموصل وقت أن كان المسلمون فى قمة التفرق والتشردم. فقد كانت فلسطين والقدس الشريف قد مر على احتلالها من قبل الصليبيين أكثر من 150 عاما، ماتت خلالها أجيال وولدت أجيال،

لكن الجيل الذى نشأ فيه نور الدين كان هو الأسوأ بين كل هذه الأجيال،

فقد كانت الخلافة العباسية ومنذ سنين طويلة ليست أكثر من اسم يطلق على خليفة، ويدعو له الخطباء فى يوم الجمعة بطول العمر. أما الواقع فقد كانت الخلافة ممزقة، وكان كل جزء منها يحكمه طائفة أو فئة يجمع بينهم العداوة لبعضهم البعض، وكانوا من الضعف والتشردم حتى إنهم كانوا يستعينون بالصليبيين لحرب بعضهم بعضا، وبالطبع لم تكن مساعدة الصليبيين لبعض هؤلاء المسلمين مجانية، ففى المقابل كان هؤلاء الحكام الصغار إما يدفعون جزية لملك بيت المقدس الصليبي أو يتنازلون له عن بعض الحصون والمواقع فى مقابل أن يساعدهم فى قتل إخوانهم المسلمين فى مدينة أخرى!!.

أما عن بيت المقدس وأراضى المسلمين المغتصبة فقد طال الزمان على احتلالها، وصار حكام ذلك الزمان يؤمنون بنظرية الأمر الواقع!!، وأنه من العبث والانتحار أن يحاربوا مملكة بيت المقدس

القوية المدعومة من ممالك الغرب، والصواب في رأيهم أن يتم هناك نوع من التعايش السلمى فى ظل حدود مؤقتة لكل مدينة إسلامية، يمكن للصليبيين أن يغيروها فى أى لحظة.

كما كانت منزلة كل حاكم منهم وقوته بحجم الذلة التى يقدمها للصليبيين. ولا تسل بعد ذلك عن عدل ولا نصره مظلوم، ولا إصلاح لمرافق، ولا اهتمام بالرعية، فالاهتمام فقط يكون للسادة الذين ينصرون الحاكم الخائن ويمكنون لكرسيه من الثبات بمساعدة أعداء الأمة.

ومن رحم هذا الزمان، خرج نور الدين محمود، الذى آمن أنه لا طريق للإصلاح إلا بتوحيد الأمة، ولا يمكن أن تتحد الأمة وعلى أنفاسها هؤلاء المماليك للصليبيين المستمدين شرعية حكمهم منهم، فكان أول ما فعله هو محاربة هؤلاء الخونة.



قلعة حلب الشهباء

نور الدين يبدأ طريق التحرير

قام نور الدين بضم العديد من المدن والمقاطعات إلى ملكه، فضم مدينة الرها (تقع حالياً في جنوب تركيا) ، ثم ضم دمشق وحمص وبعلبك وحران ، وضم أيضاً الموصل في العراق وكل هذه المدن كانت تحت حكم حكام مسلمين ممالئين للصليبيين.

وقد يقول قائل: إذن سار نور الدين على درب من سبقوه من محاربة الممالك الإسلامية المجاورة؟ وقد يبدو في الظاهر أن هذا صحيح، لكن الواقع ينفي هذه المقارنة، فالحكام الذين سبقوه كان يحارب بعضهم بعضاً لأجل دنيا حقيرة في ظل مباركة العدو الغاصب، أما نور الدين فكان له هدف سامٍ لهذه الحروب أعلنه بلسانه وصدقته فعله، فلم يتحالف مطلقاً مع الصليبيين طوال حياته، بل حاربهم وحارب من يعاونهم، ومهد الطريق للفتح الأكبر والذي حدث بعد سنوات معدودة من وفاته كما سنرى.

وفي كل المدن التي افتتحها نور الدين كان دائماً يحسن إلى أهلها، ويبني لهم المدارس والمساجد والمستشفيات، ويوسع لهم الطرق، ويبني عليها الرصافات (استراحات على الطريق)، ويوسع الأسواق بالإضافة إلى تخفيف أو إلغاء الضرائب. ثم بدأ بعد ذلك معاركه مع الصليبيين.

الإصلاح في عهد نور الدين

كان نور الدين حاكماً فذاً، حكيماً يعرف غايات الجهاد ومقاصده، ويعرف أن الجهاد لا يؤتى ثماره إلا بإصلاح داخلي في الأمة أولاً، ويعرف أن جهاد العدو ليس هبةً هوجاءً تنتهي باستشهاد خيرة الشباب دون أن يحدثوا نتيجة مؤثرة، وعلم أن طريق الجهاد الصحيح طريق صعب وطويل ولا تصلح فيه العجلة، فبدأ بإعداد الجبهة الداخلية فبنى بدمشق مستشفى لم يُبن في الشام مثله من قبل، وبنى أسوار مدن الشام وقلاعها وحصّنها، وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال ما لا يعد ولا يحصى.

وأوقف أوقافاً على من يُعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة، وأوقف أيضاً أوقافاً كثيرةً على الأرامل والمحتاجين. وبنى أيضاً المدارس بحلب وحماة ودمشق. وبنى الجوامع في جميع البلاد، ومنها جامع نور الدين محمود في الموصل، وهو المسجد الذي إليه النهاية في الحسن والإتقان.

ومن أحسن ما كان يفعله مع أجناده أنه كان إذا توفي أحد جنود جيشه وترك أولاداً فإن نور الدين يُبقي ما كان يُقَطع أباه المجاهد من إقطاعات لولده، فإن كان الولد كبيراً استقل بنفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق به فيتولى أمره إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون:

هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها،

وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب.

وكان نور الدين في المقدمة دائماً أمام جنده في المعارك، ولا تسل عن شجاعته وعقله في إدارة الحرب فقد كانت النهاية إليه فيهما، فقد كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيده ورأياً ، وأجودهم معرفةً بأمر الأجناد وأحوالهم،

وكان يسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير،

وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك ولو كان في خير ولي عند الله قيمة لرزقنيها والأعمال بالنيات.

وقال له يوماً قطب الدين النيسابوري: بالله يا مولانا السلطان لا تخاطر بنفسك فإنك لو قُتلت قتل جميع من معك وأخذت البلاد وفسد حال المسلمين بعدك. فقال له:

اسكت يا قطب الدين ، فإن قولك إساءة أدب مع الله،

ومن هو محمود؟ ومن كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو؟ ومن هو محمود؟ وظل يرددها حتى بكى من كان حاضراً.

ويبدو أن هذه النعمة قديمة منذ الأزل، لكن الحق أن نجاح الحاكم الصالح يكمن في عدم تأثره بثناء بطانته ونفاقهم له، والذي في الغالب ينتهي إلى جعل الحاكم يشعر أنه لا مثيل له وأن الدولة ستتهار إذا تولاها غيره ، فإذا سد الحاكم هذا المدخل الفاسد من قبل بطانته فهذا أول طريقه للحكم الرشيد.

وهذا ما فعله نور الدين محمود.



كان نور الدين يؤمن أن العدل أساس الملك، وكان يؤمن بأن

الشعب المقهور لا يستطيع أن يدفع عدواً غاصباً،

فأسس حكمه على العدل، وهو أول من ابتنى داراً للعدل بدمشق، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين وقيل أربع مرات وقيل خمس، وذلك للنظر في أمور الرعية و كشف الظلم، وكان يأمر بحضور العلماء و الفقهاء، و يأمر بإزالة الحجاب والحُرَّاس حتى يصل إليه الضعيف والفقير والقوي و الغني وكل فرد من الرعية سواء كان من المسلمين أو من أهل الذمة.

وحكى بعض مرافقيه أنه صلى المغرب يوماً، ثم جلس وهو يفكر بعمق مدة طويلة، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض فتعجبنا من فكره فكأنه فطن بنا فرفع رأسه، فقال: ما تقولون؟ فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا لعله يفكر في عائلته أو في نفسه. فقال: والله إنني أفكر في والٍ وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي و أعواني و أخاف المطالبة بذلك، فبالله عليكم، لا تعلموا مظلمة إلا أعلمتموني بها ورفعتموها إليّ، وإلا فخبزى عليكم حرام (وهى عبارة تعنى أنى بريء منكم).

وصف ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ (وابن الأثير من كبار مؤرخي القرن السابع ، وكان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي، فهو أدق من وصف هذه الفترة) وصف نور الدين بأنه: "كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجبٍ، ولا إلى أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها".



❖ قد بلغت الأخبار حد التواتر أنه كان أكثر الليالي يقوم بالليل يصلي و يناجي ربه ، وكان يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها و أركانها و ركوعها وسجودها، وكان على تلاوة القرآن مواظباً، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرياً في المطعم والملبس،

حتى قيل إن أدنى الفقراء في زمانه كان أعلى نفقة منه،

ولم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في غضبه،

وكان أحب شيء إليه كلمة حق يسمعهها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها.

❖ وقال ابن الأثير: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريماً للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله و نهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، و إحسان يوليه و إنعام يسديه.

ومن هنا عده البعض سادس الخلفاء الراشدين!!

❖ وقص عليه وزيره موفق الدين القيسراني يوماً أنه رأى في منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين فأمره بأن يكتب مناشير بوضع المكوس (الضرائب) عن البلاد وقال له: هذا تأويل رؤياك. فرفعه العبد عن كاهل رعيته هو في رأيه ما تجعل ثيابه نظيفة طبقاً لهذه الرؤيا.

❖ وكان يقول في تهجده: اللهم ارحم المكّاس الظالم محمود. و بعد أن أبطل تلك الضرائب اعتذر من الناس وقال: و الله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو الإسلام. وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار.

❖ وخرج يوماً إلى مع أصحابه والشمس في ظهورهم، فكلما ساروا تقدمهم الظل، فلما رجعوا صار الظل وراء ظهورهم فأجرى فرسه فجأة و صار يلتفت وراءه، فاستغرب أصحابه وسألوه عما يفعل.. فقال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها (وذلك حين كان الظل أمامه)، و تطلب من يهرب منها (لما صار الظل خلفه). فامتلاً قلبه بهذا المعنى و صار كمن يهرب من الدنيا، فرضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا!!.

❖ وكان نور الدين يستقرض من الشيخ عمر الملا من الموصل - وكان من الصالحين الزاهدين - في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان ويترك الموائد العامرة التي يحرص عليها الملوك. وكان يدعو

قائلاً: "اللهم انصر دينك ولا تتصر محموداً، من الكلب محمود حتى يُنصر؟"، وكان يدعو أيضاً: "إنك يا رب إن نصرت فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر".

❖ وكان يجمع غبار المعارك من ثيابه، ومن خوزه، ثم صنع منه قبل موته لبنة (طوبية) وأوصى أن توضع عند رأسه في القبر فتوسد رضي الله عنه تراب معاركه في قبره.

❖ وكان نور الدين محمود معروفاً بالغيرة على نسائه، حتى أن حاكم مصر الفاطمي آنذاك "العاقد لدين الله" لما أراد أن يستعين به ضد الصليبيين، وكان العاقد يعلم أن نور الدين لا يعترف به خليفة، إنما يدين بالاعتراف للخلافة العباسية في بغداد، فأرسل العاقد إلى نور الدين زكي رسالة استتجاد أرفقها بخصلة شعور نساء بيت خلافته في القاهرة، وكان أن بلغ التأثير مداه في قلب نور الدين، فسرت حمية الغيرة والنخوة في جند الشام وأهله، وقدمت الجيوش لمصر بقيادة أسد الدين شيركوه، و"صلاح الدين الأيوبي" كما سنرى.



إحياء السنة

وأظهر نور الدين ببلاده السنة، وأمّات البدعة، وأمر أن يقول المؤذن بـ "حي على الصلاة حي على الفلاح" ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده وإنما كان يؤذن بصيغة: "حي على خير العمل" لأن دولة البويهيين التي حكمت قبلهم كانت على المذهب الشيعي ، فأمر نور الدين بردها إلى الصيغة السنية.

وقد سمع يوماً جزءاً من حديث شريف، فيه " فرغ أهل المدينة ليلة فتلقاهم النبي ﷺ على فرس لأبي طلحة وهو متقلد سيفه....) صحیح البخاري، فجعل نور الدين يتعجب من تغيير عادات الناس وكيف صار الأجناد والأمرء يربطون السيف على أوساطهم ولا يفعلون كما فعل رسول الله ﷺ، ثم أمر الجند بأن لا يحملوا السيوف إلا متقلديها، و خرج هو في اليوم الثاني إلى الموكب وهو متقلد السيف وجميع الجيش كذلك يريد بذلك الاقتداء برسول الله ﷺ.

كان نور الدين مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من مال كان له من سهمه من الغنيمة، وأما الأموال المرصدة لمصالح المسلمين فقد أحضر الفقهاء واستقتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده

إلى غيره البتة، و لم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة.

وكان يقف عند حدود الله ولا يتعدها، فلما انهزم في إحدى معاركه أمام الصليبيين سمع أحد الوعاظ يقول:

أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمر والمزامير، كلا والله.

فقام نور الدين لتوه فأمر بمنع شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده، ومنع إدخالها إلى بلاده وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده في ذلك سواء، ثم خرج بعد ذلك لمعركة "توبة حارم" فنصره الله وكسر الإفرنج.



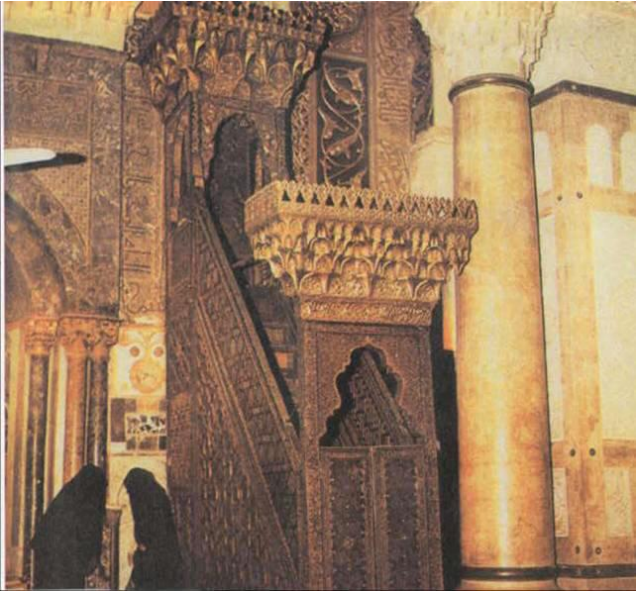
البيرمستان النورى

وقد كان مهيباً وقوراً، شديد الهيبة في قلوب الأمراء، لا يتجاسر أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه، ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن سوى الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، ومع هذه العظمة فإنه كان إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه، وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً يقول:

هؤلاء جند الله، وبدعائهم نصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيتهم فإذا رضوا منا ببعض حقهم فهم الذين لهم المنة علينا.

وللدلالة على هيبة نور الدين محمود فإننا نورد هنا لمحة لطيفة وردت عن الإمام الحجة الحافظ ابن عساكر الدمشقي، صاحب موسوعة تاريخ مدينة دمشق، وقد عاصر كلا من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، فحضر الحافظ ابن عساكر مجلس صلاح الدين بدمشق فرأى فيه من اللغط ما لا حد له، فقد كان صلاح الدين يتبسط مع جلسائه، فذكر صلاح الدين بما كان يحدث أيام نور الدين فلم يتمكن من توصيل رأيه لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدة لا يحضر مجلس صلاح الدين، فلما تكرر من صلاح الدين الطلب له حضر، فعاتبه صلاح الدين على

انقطاعه فقال: نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيتك كبعض مجالس
السُّوقِ، لا يستمع إلى قائل ولا يرد جواب متكلم، و قد كنا بالأمس
نحضر مجلس نور الدين فكنا - كما قيل - كأنما على رؤوسنا الطير؛
تَعْلُونَا الْهَيْبَةُ وَالْوَقَارُ، فإذا تكلم أَنْصَتْنَا، وإذا تكلمنا اسْتَمَعَ لَنَا، فأمر
صلاح الدين أصحابه ألا يكون منهم ما جرت به عادتهم من التبسط
إذا حضر الحافظ ابن عساكر.



منبر نور الدين محمود بالأقصى

وقد يقول قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبي إليه الأموال الكثيرة؟ فليذكر من يقول ذلك نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه، وهو سيد الزاهدين في زمانه، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت و اليمن و الحجاز و جميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق و هو على الحقيقة سيد الزاهدين.

والصحيح أن حقيقة الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد منها.

بمعنى آخر أن تملك الدنيا بيدك ثم لا تجعل لها مكانا في قلبك. ويحكى أن بعض الأعيان جاءوا لحاكم الموصل من قبل نور الدين، فقالوا له: قد كثر الدُعارُ وأربابُ الفساد، ولا ينفع مع هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين، وقلت له في ذلك. فقال الوالى: أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى، ولا أجرؤ على ذلك؛ فقولوا للشيخ عمر الزاهد يكتب إليه. وكان الشيخ عمر الزاهد مقرباً من نور الدين لدينه وورعه. فحضروا عنده، وذكروا له ذلك، فكتب هذا الزاهد إلى نور الدين، وقال له إن الدُعارَ والمفسدين و قطاع الطريق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل و صلب و ضرب هؤلاء المفسدين.

فقلب نور الدين كتابه، وكتب على ظهره:

"إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم و شرع لهم شريعة و هو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها، و لو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى".

قال فجمع الشيخ عمر أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال:

انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد!!

فالزاهد (الشيخ) يطلب الشدة مع المفسدين إلى حد القتل والصلب، والملك (نور الدين) يأمر بالالتزام بحدود الله وعدم تجاوزها وأن المخطئ يعاقب حسب الشرع بلا زيادة.



الجامع النوري في الموصل (تم تدميره بالكامل خلال الحرب على تنظيم داعش)

الزاهد يلعب الكرة

وقد تعجب بعد كل هذا إذا علمت أن نور الدين محمود الزاهد الورع كان من أحسن الناس لعبا بالكرة (تشبه لعبة الرجبي الشائعة الآن في الهند وباكستان) وأقدرهم عليها، و كان ربما ضرب الكرة و يجري الفرس و يتناولها بيده من الهواء و يرميها إلى آخر الميدان.

وكان رحمه الله لا يفعل ذلك إلا بنية حسنة... فقد كان بالجزيرة رجل من الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس و كان نور الدين يكاآته و يرأسله و يرجع إلى قوله و يعتقد فيه اعتقادا حسنا، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة فكتب إليه يقول: "ما كنت أظنك تلهو وتلعب و تعذب الخيل لغير فائدة دينية". فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول: "و الله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو أو البطر إنما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا و نهارا، شتاء و صيفا إذ لا بد من الراحة للجند و متى تركنا الخيل على مرابطها صارت لا قدرة لها على إيمان السير ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة فنحن نركبها و نروضها بهذا اللعب فيذهب ضعفها و تتعود سرعة الانعطاف و الطاعة لراكبها في الحرب فهذا، والله الذي بعثني على اللعب بالكرة".

قال المؤرخ ابن الأثير:

فانظر إلى هذا الملك المردوم النظير الذي يقل في أصحاب
الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله: فإنه حول بالنية
الصالحة "لعبة الكرة" فجعله من أعظم العبادات وأكبر
القربات و هذه أفعال العلماء الصالحين العاملين.



البرمستان (المستشفى) النوري في دمشق

سلطان

زوجته عصمت الدين خاتون

أراد الله سبحانه ألا يجعل هذا الرجل وحيداً في هذا الزمان الصعب، فأنعم عليه بزوجة صالحة قلَّ أن يوجد الزمان بمثلها، فقد كانت زوجته عصمت الدين خاتون بنت الأتابك مُعين الدين حاكم دمشق تُكثِّر القيام في الليل، حتى أنها نامت ذات ليلة عن وردها، فأصبحت وهي غضبي، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها من قيام الليل، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، وأعطى الضارب أجراً جزيلاً.

ولما قَلَّتْ النفقة على زوجته، ولم يكفها ما كان قرره لها، أرسلت إليه أخاها تطلب منه زيادةً في وظيفتها، فلما سمع ذلك تنكر واحمر وجهه، ثم قال: "من أين أعطيها؟ أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، وأنا خازنهم، عليها فلا أخونهم فيها".

ولا يظن ظان أن زوجته عصمت الدين خاتون كانت تحتاج للنفقة الزائدة في أمر زينتها أو لباسها، بل كانت رضى الله عنها أمًّا للمساكين في عهدها، وكانت كما ذكرنا صوامعة قوامعة.

صلاح الدين الأيوبي.. غراس نور الدين الطيب

صلاح الدين الأيوبي هو الاسم الأشهر في تاريخ محاربة الصليبيين، لا يجهله أحد من المسلمين أو الصليبيين.

والذى قد يجهله البعض أن صلاح الدين الأيوبي هو تلميذ من تلامذة نور الدين،

وأن روح الجهاد والعدل والشهامة وكل السمات الرائعة المعروفة عن صلاح الدين الأيوبي هي من غرس نور الدين محمود.

بل إن منبر صلاح الدين الذى احترق داخل المسجد الأقصى سنة 1969 م حين أنشب أحد اليهود النار في الجناح الشرقى للمسجد الأقصى ، كان هذا المنبر يسمى بمنبر صلاح الدين الأيوبي لأنه هو الذى وضعه بالأقصى بعد تحريره سنة 1187م، لكن ما لا يعرفه الناس أن هذا المنبر بناه في الأساس نور الدين محمود، أيام كان حاكما لحلب يحلم بتحرير الأقصى، ثم نقله معه لدمشق حيث تفنن الحرفيون المهرة من دمشق وحلب في إنتاج هذه التحفة الرائعة، ثم وضعه صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك في الأقصى بعد تحريره، وظل به حتى احترق للأسف سنة 1969م ، وقد تم عمل عمليات ترميم للمنبر بالأردن لمدة 5 سنوات بعد ذلك، قبل إعادته للقدس.

نشأ صلاح الدين الأيوبي في بلاط نور الدين محمود، فقد كان والده نجم الدين أيوب أحد أهم أعوان الملك العادل نور الدين محمود، وكان أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين أكبر قادة نور الدين العسكريين، فنشأ صلاح الدين في بلاط نور الدين وهو يرى هذا الملك العادل، وكيف يسوس الرعية وكيف يجهز الأمة لمعركة فاصلة مع الصليبيين لطردهم من فلسطين وبقية بلاد الشام، وكان نور الدين أكبر من صلاح الدين بعشرين سنة.

وقبل وفاة نور الدين بعشر سنوات، ظهر التنافس بين نور الدين والصليبيين على غزو مصر، فقد كانت مصر طوال الفترة السابقة تحت حكم الخليفة الفاطمي العاضد، وكان ضعيفاً مريضاً، ترك الحكم العوبة بين يدي وزيرين متنافسين هما: "شاور"، و"ضرغام"، وقد أصاب الوزيرين ما أصاب حكام هذه الفترة من محاولة الاستعانة بالسيد القوى وقتها وهم الصليبيون، ومن هنا انتبه نور الدين إلى خطورة هذا الوضع، وأرسل عدة حملات في محاولة لغزو مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبتة ابن أخيه الشاب صلاح الدين الأيوبي حيث كان هذا هو أول ظهور لصلاح الدين في موضع قيادة تحت إشراف عمه أسد الدين شيركوه، وابتدأت الحملات من سنة 559هـ الموافق لسنة 1164م واستمرت نحو خمس سنوات وفشلت عدة مرات بسبب خيانة "شاور" الوزير الأول للخليفة الفاطمي وتعاونه مع الصليبيين حتى نجح شيركوه في الظفر بمصر سنة

564هـ (الموافق لسنة 1169 م)، وتولى شيركوه الوزارة بمرسوم من العاضد لدين الله، آخر حكام الفاطميين، على أن شيركوه سرعان ما توفي فعين نور الدين زنكي صلاح الدين الأيوبي وزيراً على مصر بموافقة العاضد، ثم ضم نور الدين مصر لملكه في الشام بعد خلع العاضد.

ويطيب لبعض المؤرخين أن يستفيض في وصف أن هناك خلاف بين الرجلين، ويستدلون على ذلك أن صلاح الدين ظل متردداً ومتهيباً من تنفيذ أمر نور الدين بخلع العاضد وإنهاء الخلافة الفاطمية بمصر، وظل يماطل في تنفيذ أمر نور الدين، فقد كان يرى أن المصريين ربما يكونون متعاطفين مع الفاطميين الذين حكموا البلاد 200 سنة، وربما لا يقبلون خلع العاضد بهذه السهولة، حتى أرسل نور الدين رسالة شديدة اللهجة، وأمرأ صارماً لصلاح الدين بخلع العاضد.

والعجيب أن العاضد مات بعد خلعه بأيام فندم صلاح الدين على خلعه وقال: لو عرفنا أنه يموت ما نَغَصْنَا عليه آخر أيامه (وكان صلاح الدين والعاضد صديقين مقربين)، وقد رد القاضي الفاضل وكان عالماً جليلاً مُلازماً لصلاح الدين رداً طريفاً على كلام صلاح الدين؛ إذ قال:

يا مولاي، لو علم أننا لن نخلعه لما مات!!

والحق أنّ نور الدين كان ينظر إلى مصر على أنها مصدر لدعم الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية المجاهدة، لكن صلاح الدين كان أكثر معرفة من نور الدين بما يجري في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج لاسترداد حكمهم، فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوي، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام أو حتى محاربة الصليبيين في هذا التوقيت، وكان هذا هو السبب في عدم طاعة صلاح الدين لأمر آخر من أوامر نور الدين، وذلك حين أمره نور الدين بالتوجه لفلسطين لحصار حصن الكرك، فلم ينفذ صلاح الدين الأمر لكنه أيضاً أرسل رسولاً إلى نور الدين يحمل اعتذار صلاح الدين وتبرير ما حدث، وتقبل نور الدين عذره، وقال:

"حفظ مصر أهم عندنا من غيرها."

وظل صلاح الدين والياً على مصر حتى مات نور الدين، رحمه الله.



بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي

ولما ساءت الأحوال بدمشق بعد وفاة نور الدين، وتولى ابنه الصالح اسماعيل الحكم بعده، وكان لا يزال صغيراً - بدأ القادة الذين أحاطوا بالصبي الصغير يرجعون إلى الاتصال بالصليبيين ومهادنتهم والاستعانة بهم على بعضهم البعض، فاستجد الصالحون من أهل دمشق بصلاح الدين، وهم يعلمون أنه التلميذ النجيب لنور الدين، وأنه القادر على منع عودة هذه المآسى ثانية، فقدم صلاح الدين من مصر وتولى الحكم بدمشق فتوحدت مصر والشام تحت راية واحدة تمهيداً لبدء العد التنازلي لتحرير القدس.

وبعض العلماء يعتبرون نور الدين وصلاح الدين في المتأخرين من الحكام كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما في المتقدمين وذلك في العدل و الجهاد والاجتهاد في إعزاز دين الله، وأنهما - نور الدين، وصلاح الدين - حجة من الله على الملوك المتأخرين الذين قد يستصعبون طريقة الخلفاء الراشدين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم ؛ فلن يعجز عن التشبه بهما أحد إن استعان وأخلص لله تعالى.

وقد تشابه الرجلان في كثير من الأمور، فكلاهما مات قبل أن يكمل الستين، فنور الدين مات وعمره 58 سنة ، بينما مات صلاح الدين

وعمره 57 سنة، وحكم نور الدين دمشق 20 سنة وحكمها بعده صلاح الدين 19 سنة وكلاهما عاش ومات وله هدف واحد: طرد الصليبيين من بيت المقدس، وحول هذا الهدف دارت كل شئون مدة حكمهما، وإن كانت زيادة مدة نور الدين في عمره وزيادة مدة حكمه كالتبنيه على زيادة فضله، فإنه أصل ذلك الخير كله، فهو الذي مهد الأمور بعدله و جهاده و هيبته وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد فهان على من بعده الاستمرار، وإن كان صلاح الدين أكثر جهاداً للصليبيين بحكم أن الأمور قد مهدها له نور الدين.

ومن أعجب ما يحكى أن إنساناً كان بدمشق غريباً، فاستوطنها، وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلما توفي تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل، فشكاهم فلم ينصف، فنزل من قلعة دمشق و هو يستغيث و يبكي و قد شق ثوبه و يقول يا نور الدين لو رأيتنا و ما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك؟ ثم قصد تربة نور الدين و معه من الخلق ما لا يحصى و كلهم يبكي و يصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين، و قيل له: احفظ البلد و الرعية و إلا خرج الأمر من يدك، فأرسل إلى ذلك الرجل و هو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه، فَطَيَّبَ قلبه، ووهبه شيئاً، وأنصفه، فبكى الرجل أشد من بكائه الأول، فقال له صلاح الدين لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدلٍ فينا بعد موت نور الدين. فقال صلاح الدين:

كل ما ترى فينا من عدل فمن نور الدين تعلمناه.

وفاته

وفى سنة 569 هـ توفي نور الدين، وهى السنة التي أكثر فيها من الأوقاف و الصدقات و عمارة المساجد المهجورة و إسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، و قبض إلى رحمة الله تعالى عن ثمان وخمسين سنة مكث منها في الملك ثمان وعشرين سنة.

كلمة أخيرة (الشهادة بصدق)

قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ " **رواه مسلم،**

وهذا نور الدين محمود بالفعل قد مات على فراشه، لكن أبى الله إلا أن يقترن لقب "الشهيد" باسمه حتى صار اسمه فى كل المراجع التاريخية "نور الدين الشهيد"، بل أعجب من ذلك أننى ذهبت إلي سوريا فى 2004 م ، وكنت أود زيارة قبره والترحم عليه، فعلمت أن قبره يقع بجوار سوق الحمادية بدمشق ، وهو أشهر وأكبر سوق بالشام، فسألت العديد من المارة والباعة فى السوق عن مكان قبر نور الدين محمود فلم يعرفوه، فاستغربت وحزنت لذلك، حتى سألت رجلاً كبيراً وقوراً، فقال لى: " هل تقصد قبر نور الدين الشهيد؟"

فقلت : سبحان الله ، بعد كل هذه القرون، يابى الله إلا أن يقترن اسمه بلقب الشهيد!!